

١- الفتنة الكبرى

للأستاذ محمود محمد شاكر

—>>><<<—

بادرت إلى قراءة كتاب « الفتنة الكبرى » الذي صنفه الدكتور طه حسين ، لأنه أول كتاب له عن رجل من رجال الصدر الأول من الإسلام ، وهو « عثمان بن عفان » أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنا أعرف الدكتور مكانه من العلم والتحقيق ، وحسن تأنيبه في تخريج الكلام ؛ فمن أجل ذلك أيقنت أنه سيملاً هذا الكتاب علماً يضارع قدر هذا الرجل ، ويوازن خطر الفتنة التي اضطرر سميرها في آخر خلافته ، وانتهى باغتيال خليفة رسول الله اغتيالاً لم يعرف تاريخ الإسلام أبشع منه ولا أظلم . وقلت لنفسى قبل أن أجاوز الكلمة الأولى من الكتاب : إن طه خير من يصور للناس هذه الأحداث المختلطة المضطربة ، وخير من يهديهم في شعابها إلى مفصل الرأي ومقطع البيان . وقد بدأ ما مثل الناس في بيده هذه الفتنة المظلمة ، وقد بدأ ما أخطأ الكتاب فهم هذا الحادث الجلل ، وقد بدأ ما حار الناس في أمر المسلمين الذين ذبحوا خليفتهم كما تذبح الشاة المظلومة ،

مكتبته من داره لوحاً كتب فيه « محمد » وقد علقه على الجدار أمامه يرمقه وهو جالس إلى مكتبته . واقتد قال لي : حسبى هذا الإسم أستوحى منه كل خير ، وأستمد منه كل سوؤد .

وقد حدثني أنه كان في أزمة من أزمت حياته بناجى رسول الله قائلاً : « يا محمد ، خادمك وخادم دينك ولنتك تتركه لنفسه وتسلمه للأحداث » .

يا صديق إسماف . من لى بقلبك لأرتيك ؟ إنما هذه كلمات كتبها على مجل في هول الفاجعة التي تذهب باللب ، ويطيش لها البيان . وإن ذكراك لى قلوبنا وعلى ألسنا وستبقى على أقلامنا ما ذكر الأدب العربى واللغة العربية ، وما ذكر تاريخ العرب في المعصور الثائرة التي نعمانها .

رجلك الله ورزقنا الصبر في العيبة ، وعوض العرب فيك خيراً .

عبد الوهاب عزازم

وقديماً وحديثاً ما خاض الناس فرا خاضوا إلا مضلة لا يهتدى فيها سار إلى علم يفضى إلى جادة واضحة أو إلى غاية معروفة .

رमित بنفسى وعقلى في هذا الكتاب ، وأنا على مثل هذه الثقة التي وصفت ، وبمثل هذا الأمل الذي أملت ، فما كدت أفرغ حتى رأيت الكتاب كله يختلج بين يدي . راست أحب أن يعرف القارىء لم يختلج الكتاب . فهذا حديث طويل لو بدأت أقصه لما عرفت أين انتهى ، فأنا طاربه عنه ؛ لأنى أوثر أن أدع قلبه حيث هو من الاستقرار والأمن والرضى ، وأنا أقفل هذا وإن شاء هو أن أنشر هذا الذى طويت ، وأفعله وإن كره لنفسه هذا الاستقرار والأمن والرضى . وحسب القارىء أن ينظر ملى إلى موضعين في هذا الكتاب ، لم ينقض عجبى منهما ولن ينقضى عجبى حين يقف على خبرهما .

وأسبق القلم فأزعم أنى أسلم جدلاً ، كما يقولون ، بأن كل الذى أنى به الدكتور طه صحيح فى جلته وتفصيله ، وأن الصورة التي أراد أن يصور بها تاريخ عثمان رضى الله عنه وتاريخ أصحابه ومناصربه صحيحة أيضاً فى جلتها وتفصيلها ، وأزعم فوق ذلك أنى لا أخالفه فى شىء منها خلافاً ما ، وأنى لو كتبت تاريخ عثمان ، وتاريخ الفتنة ، لم أقل إلا بما قال إذ ذكر هذه الفتنة الخبيثة فقال ص ١٠٩ « فالفتنة إذن إنما كانت عربية نشأت من تراحم الأعيان على الفنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأعيان » . وأنت خليق أن تنظر فى هذا التكرار لهذه الصفة « فتنة عربية » و « عامة عربية » لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان ، وأنت خليق وحري وجدير بأن تفعل هذا وأن تتأمل فتطيل التأمل ؛ لأنك سوف تاقى بعد قليل شيئاً جديداً كل الجودة ، وحسنًا كل الحسن ؛ فما تكاد تمضى صفحات حتى ترى باباً فى ص ١٣١ يبدأ هكذا :

« وهناك قصة أكبر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورت هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثارها بمد ، وهى قصة عبد الله بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، حبسنى الأم ، فأسلم فى أيام عثمان ، ثم جعل ينتقل

يكن أيسر من أن يتتبع الولاة هذا الطارىء ، ومن أن يأخذوه وبما يقوله « ثم يقول في ص ١٣٤ : « فاتفق من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط . ولشكر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يثبت بدينهم وسياساتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبلي من صناعه ، وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغياً ولا رهياً ولكن مكرماً وكيداً وخداعاً ، ثم أتى حتى له من النجاح ما كان يبتغى ، فخرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه » ثم يقول : « هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي أن تقسام عليها أمور التاريخ » . هكذا يقطع الدكتور الرأي جملة واحدة !

هذا هو الموضع الأول ، أما الموضع الثاني فهو أشد الأشياء علاقة بهذا ، ولكن الدكتور قطعه عنه قطعاً كريماً فترك صفحة ١٣٤ ومضى على وجهه في هذا البحث الجليل إلى أن بلغ ص ٣٠٩ لكي يقول : « وهنا تأتي قصة الكتاب الذي يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجمين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها » ، ثم اختصر قصة الكتاب اختصاراً وقال : « كل هذا أشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئاً قد وقع . والأمر أيسر من هذا . تلقى أهل الأمصار وعداً من إمامهم فاطمئنتوا إليه ، ثم تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ! فأقبلوا تائبين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وأن لا يعودوا إليه حتى يفرغوا » . ثم تبين للدكتور أن إلغاء هذا الكتاب الذي أرسل إلى والي مصر يأمره بقتل رؤوس الوفد الذي جاء من مصر ، ليس يحل الإشكال في عودة الوفد بمد أن فصل عن المدينة راجعاً إلى مصر ، وتبين له أيضاً أن الغرض الذي ذهب إليه من أهل الأمصار تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، أي أنه كذب عليهم باللفظ العسري ، شيء غير مستساغ ، فإنه سأل نفسه كيف تبينوا أنه كذب عليهم فلم يعرف كيف يجيب ، فألقى الغرض كما هو وزاد عليه أنهم أقبلوا تائبين ، « فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد نهباوا أمتاعهم ، فكروا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا أن هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا في دورهم ، كروا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال » ولكن رأى الدكتور طه وهو خير من يرى الآراء ، أن هذا الغرض مدخول كله إذا لم يبرز بغرض

في الأمصار يكيد للخليفة ويفرى به ويمرض عليه ، ويذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين والسياسة جميعاً » ثم يقول : « وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيداً إحكاماً ، فنظم في الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد ، وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى إذا نهيات لها الأمور ، وثبتت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها « عربية » ، وبأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا « عامة عربية » أي أنه ليس لهذا اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل في تاريت نارها . وهذا تخرج بين جدأ ، لا يخالفنا فيه أحد ولا الدكتور طه نفسه فيما نعلم . ثم يعفى الدكتور في حديثه ليقول بمقب ذلك : « ويحيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً . وأول ما نلاحظه أننا لا نجد لابن سبأ ذكراً في (المصادر المهمة) التي قصت أمر الخلاف على عثمان ، فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتفاض الناس عليه . ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف ، وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً . وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » . وأراني مضطراً أن أنقل لك أيضاً ما قاله الدكتور بمد ذلك في ترجيح رأيه وبيان حجته قال :

« ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن؟ ولكنني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون في عصر عثمان ليثبت بقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ... ولو قد أخذ عبد الله ابن عامر أو معاوية هذا الطارىء الذي كان يهودياً فلم يسلم إلا كائناً للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه إلى عثمان ، ولبعث به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذ عبد الله بن سعد ابن أبي سرح لما أعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمد بن (محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة) . لولا خوفه من عثمان . . . ولم

آخر ، ففكر وفنر ، ثم نظر ثم قال : « وأكاد أنطم بأن قد كان لهم من أهل المدينة أنفسهم أعوان دعوم وشجعوم ، ثم أعلمهم بما عزم عليه أصحاب النبي ، ثم أعلمهم بمودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عمان » . وهذه كلها كما ترى فروض وتخيل ، وإقرار أيضاً بما أنكروه في أمر عبد الله بن سبأ من تنظيم (الجماعات الخفية) التي تستر بالكيد ، فهو يفكر هذا المبدأ هناك ويقول هنا !! ثم يعرض الدكتور في فروض ، فرضاً من بعد فرض ، حتى يريك كيف تقدمت الأمور فجاء إلى أن كان مقتل عثمان ، ولكنه يختصر ذلك اختصاراً غريباً عجيباً لم أعرف له مثيلاً في كل ما كتب الدكتور وفرض وادعى ثم جزم الرأي وقطم به ، مما يعرفه أكثر قراء العربية الذين قرأوا للدكتور منذ أول نشأته في الكتابة .

ولست أحب أن أقف بك عند شيء إلا عند هذين الوضهين فأنا أكره الإطالة في تلفية كلام الدكتور ، خشية أن لا أتبعي ، فإن تحت كل حرف مما كتب علماء كثيراً لا بد من تفيته وغربلته ورده إلى وجوه الحق التي زال عنها إلى سواها ، وأنت ترى أننا اضطررنا اضطراراً إلى الإطالة بالنقل ، لثلا يفوت عليك شيء من لب حديث الدكتور وعلمه . وقد بدأ الدكتور حديثه في إسقاط قصة اليهودي ابن السوداء عبد الله بن سبأ فذكر أن « الرواة المتأخرين » أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد في (المصادر المهمة) ، وأن (ابن سعد) لم يذكرها وأن البلاذري لم يذكرها في أنساب الأشراف (وهو فيما يرى الدكتور أهم المصادر) ، وأن الذي ذكرها هو الطبري « وأخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » كما يقول الدكتور .

١ - ويده الدكتور بقوله : « الرواة المتأخرون » فيه إيهام شديد ، متعمد فيما يظهر ! فإن الطبري ليس من الرواة المتأخرين ، فهو قد ولد سنة ٢٢٥ ومات سنة ٣١٠ ، فهو معاصر (البلاذري) وفي طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات .

٢ - أن سيف بن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيوخ شيوخ الطبري والبلاذري ، وهو في مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، فقد مات في زمن الرشيد ، أي فيما قبل سنة ١٩٠ من الهجرة . فلا يقال عنه ولا عن الطبري أسهما من « الرواة المتأخرين » كما أراد الدكتور

طه أن يوم قارنه .

٣ - أن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبري من (المصادر المهمة) فليت شمري ما هي المصادر المهمة التي بين أيدينا ؟ .

٤ - أن الدكتور طه يعلم أن كتاب ابن سعد الذي بين أيدينا كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر . والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر في ٨٤ صفحة ، ولأبي بكر في ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ، والأحداث في خلافته هي ما يعلم الدكتور طه ويعلم الناس ، لم يكتب سوى ٢٢ صفحة ، فلما ذكر على بن أبي طالب والأمر في زمنه أقدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة . هذا على أن في الكلام على طريق ابن سعد في تراجم الرجال شيء آخر غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر في هذا الفصل إلا قليلاً جداً مما ينبغي أن يكتب لو أنه ألف كتابه في التاريخ العام لا في الترجمة للرجال . وهذا شيء يملده الدكتور طه حق العلم ولا يرب .

٥ - أنه كان من حجة الدكتور في نفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودي اللعين أن البلاذري لم يذكره ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً) : ثم عاد فنفي أيضاً خبر الكتاب الذي فيه الأمر بقتل وقد مصر ، مع أن البلاذري ذكره وأطال وأتى فيه بما لم يأت في كتاب غيره . ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خيراً ما حجة في نفيه ، ثم ينفي أيضاً خبراً آخر قد ذكره ورج فيه ؟

وهذه الخمسة أشياء كنت أستعجى أن أحدث الدكتور بها أو أناقشه فيها ؛ لأنها من الموضوع والجلاء بحيث لا تخفى على رجل مثله خراج ولاج بصير بالعلم أحسن البصر . ولكن بقي شيء واحد أحب أيضاً أن يتاح لي يوماً ما أن أعرفه ، وهو : هل كان في نص البلاذري قديماً ذكر عبد الله بن سبأ اليهودي ثم سقط أو أسقط من الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لي إلا إذا وقعت على نسخة قديمة وثيقة من كتاب أنساب الأشراف ، فإن هذه النسخة التي بين أيدينا إنما طبعت في أورشلين ، وطبعها رجل من طفاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية بل باللغة العبرية ! وليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك في ذمة هذا اليهودي الصهيوني الذي طبع الكتاب

قال : ثلاثون ألف ورقة . نقالوا : هذا مما تفتى فيه الأعمار قبل تمامه . فاختره لهم في ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال لهم : هل نشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إن الله المات المهمم ! .

ومن قرأ كتاب الطبري في تاريخه أو تفسيره علم أن هذا حق ، وأن الرجل كان فارغاً لاسم لا يفتنه عنه شيء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحقها ورأى فيها الرأي الذي لا يكاد ينقض . والفرق بينه وبين البلاذري لا يخطئه بصير بهذا العلم فليس من الحججة في شيء أن يقال (في عصرنا هذا) : إن البلاذري لم يذكر هذا ، فيكون ذلك كافياً في الرد على ما ذكره الطبري . وهذا شيء لا يحتاج إلى جدال كثير .

وإذن فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله حين نقي خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذي فيه الأمر يقتل العشرين بعد الذي قد رأيت من تهافت أسلوبه في البحث العلمي ؛ وإذنت فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء في نقي الأخبار وتكذيبها بلا حجة من طريقة أهل التحجيص ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذري وتقدمه على الطبري ، وبلا مراجعة للصورة التي طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التي ينقل عنها كما هو القول في ابن سعد والبلاذري معاً . وإذن فيحق لنا أن ننقل هنا كلمة للدكتور طه نفسه قالها عندما ذكر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر الخلفاء الذي كان بينهم ، وذكر أو زعم أنهم تراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضاً ، وزعم أنه لا ينبغي لنا أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم هم في أنفسهم ، فقال في ص ١٧٢ من كتابه :

« ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من (فتنة) واختلاف . فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي والخلفاء . فإني أصدقهم حين يروون ما يروون ، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يجنبنا . وما ينبغي أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا شيء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا . »

في مطابع الصهيونية في أورشليم . فقد رأينا من قبل رجلاً آخر حاطه الدكتور طه يوماً ما برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية ، وكان يسمى نفسه « أبا ذؤيب » إسرائيل واقسون ، (وهو الآن في فلسطين يجاهد في سبيل الصهيونية) ، فألف كتاباً في تاريخ اليهود في بلاد العرب ، وطبع في مصر ، وقدم له الدكتور طه مقدمة أثنى فيها عليه تثناء بالنكا ، ومع ذلك فقد وجدنا في الذي نقله من الأخبار والأحاديث تحريفاً وتبرأً واقتطاعاً من نصوص معروفة معروفة . أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك في أن اليهودي الآخر طابع كتاب البلاذري ، يفعل مثل هذا ؟ إننا على الأقل نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذري ، قد يترك المؤلف فيها شيئاً في مكان ، ثم يذكره في مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر في المكان الأول ، وهذا شيء يعرفه الدكتور كما يعرفه وأحسن مما يعرفه ، أفلا يجوز أن يكون البلاذري قد ذكره مثلاً في ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبي بكر) أو (محمد بن أبي حذيفة) أو رجل ممن اشترك في هذه الفتنة ؟ وهو يتلم أن الذي وجد من كتاب البلاذري قسم ضئيل جداً طبع منه جزء في ألمانيا سنة ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودي الصهيوني طبع جزء آخر هو الذي فيه ترجمة عثمان في سنة ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر في سنة ١٩٣٨ قال الناشر في مقدمته المكتوبة بالعربية إن هناك حوادث جرت في عهد يزيد بن معاوية ، هي وقعة كربلاء وموت الحسين « ولم تذكر في ترجمة يزيد ، بل ذكرهما في تراجم بني أبي طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب وفقاً لتسلسل الأنساب » كما قال بنص كلامه . أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذري قد أدمج أمر عبد الله بن سبأ في مكان آخر كما فعل فيما لاحظته وذكره هذا اليهودي ؟ كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفي شيئاً لا يبالي أن يجتاز كل هذا وينفي عنه ، ليقول فيه بالرأي الذي يشتهيه ويؤثره فير متلجلج ولا متوقف .

ثم كيف نسي الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلادري والطبري ؟ بل لعل الطبري أقوى الرجاءين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيله ، وهو الذي روى عنه أنه قال لأصحابه : « أنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره